الاختلاف والوطن

مصر كانت وسوف تظل من أعظم بلاد الأرض رغم كل الهوان الحالى. ففى التاريخ. هى صانعة أكبر وأقدم حضارة عرفتها البشرية. إن مصر حافظت على كونها دولة مدنية منذ أكثر من سبعة آلاف سنة وحتى الآن حول وادى النيل. بل وحافظت على أبعادها الجغرافية على مر السنين. قلما تجد مثل ذلك على مر التاريخ. بل أجزم أن مصر هو البلد الوحيد الذى حافظ على وحدة ترابه ومكانه الجغرافى واستقلاله منذ فجر التاريخ. من ناحية الجغرافيا فمصر هى ناصية الكرة الأرضية بلا منازع. فهى ملتقى العالم أجمع وممر رئيسى للحضارة البشرية. وتتفرد بموقعها بين ثلاث قارات. بل إن أراضيها تمتد على قارتى إفريقيا وأسيا. ومنها خرجت البشرية لتعمير الأرض.

نتذكر ما كتبه السفير السوفيتى بالقاهرة نيكولاى نافيكوف Navigov Nicolae فى كتاب له أثناء وجوده بمصر سنة ١٩٤٣، أثناء الحرب العالمية الثانية. قال عن مصر والمصريين بعد أن زار مدينة الأقصر ورأى آثارها: إن هذا التاريخ العظيم لابد أن يكون لشعب عظيم. وبعد أن حضر عرض مسرحى فلكلورى بمدينة الأقصر قال «دهشت أن أرى الشاخصين أمامى على المسرح. وكأن الرسوم على جدران معابد الأقصر قد خرجوا من تلك الجدران ووقفوا أمامى على المسرح». ويقول «أى شعب مثل هذا يحافظ على شكله وسلوكه وجيناته الوراثية كل

هذا التاريخ، لابد أنه شعب عظيم». يقول السفير السوفيتى فى بحثه عن أصول المصريين، إن سكان وادى النيل كانوا يبتلعون أى حضارة قادمة وأى ثقافة قادمة عليهم لأنهم أصحاب الحضارة الأقوى، وجيناتهم هى الأقوى. الكل يذوب فى هذا المصنع العجيب الذى أخرج شعبا من أعظم شعوب الأرض. ويقول لا تجد على وجه الأرض شعبا يحب ويتعايش مع الحيوانات مثل الفلاح المصرى، بل تجد أن الحيوان فى منزلة الابن عند صاحبه، وهم يعيشون ويتعايشون لخلق حياة كلها هدوء وحب وتناغم لصنع حضارة لا تنتهى إلى الأبد.

قام عدد من الباحثين اليهود بأخذ عينات طبية (جينية وراثية) من عدد من شعوب الأرض حتى يحددوا أى من تلك الشعوب هى الأكثر نقاء من حيث الجينات الوراثية والاختلاط بين الفرد والآخر، فكانت المفاجأة أن اليهود نسبة نقاوتهم الجينية لا تزيد عن ٧٠٪، ولا يختلفون كثيرا عن باقى شعوب العالم، بل تتماثل مع من يعيشون معهم، وكان ظنهم أنهم قد يكونون أكثر شعوب الأرض نقاء، لكون دينهم يمنعهم من الزواج من غير اليهودى، ونرفع لهؤلاء الباحثين القبعة حين أعلنوا بكل حيدة أن الشعب الوحيد الذى تزيد نقاوة دمه وجيناته عن ٩٥٪ هو الشعب المصرى. وحديثا قامت الأمريكية مارجريت كاندل مع فريق بحث كامل سنة ١٩٩٤ وعلى مدى ٥ سنوات وحتى سنة ١٩٩٩ لدراسة الضفائر الجينية لليهود فى عدة دول من دول العالم، فوجدت أن اليهودى فى ألمانيا يتماثل فى الضفائر الجينية مع الألمانى غير اليهودى، والروسى اليهودى متماثل مع الروسى غير اليهودى، واليهودى الأمريكى مثل الأمريكيين غير اليهود، وهكذا. وأخذت كاندل

عينات من المصريين من أسوان وحتى الأسكندرية ومن الكفور والنجوع المصرية ومن عيادات بعض الأطباء المصريين. ووصلت إلى نتائج أذهلتها بأن هناك تماثلا بين كل المصريين بنسبة ٩٧ ٪، لا فرق بين ساكن المدينة وساكن القرية، أو بين المسلم والمسيحى، أو أى مصرى من ديانات أخرى، ووصلت إلى أن الشعب المصرى شعب واحد له مواصفات جينية واحدة، ليس شعبا مختلطا مثل باقى الشعوب، فهو شعب واحد من الناحية التاريخية، منذ عصر الأسرات الفرعونية وحتى وقتنا هذا، وهو شعب واحد من الناحية البيولوجية. تحقق فى هذا البحث ما قاله العالم البريطانى «إستيان» إن المشكلة فى مصر ليس فى غزوها بل فى الوصول إلى أهلها، فنادرا ما تجد أى شعب متماثل فى كل شىء مثل هذا الشعب، متماثل فى صفاته الخارجية والجينية الوراثية وكأنهم من أسرة واحدة. ويقول المؤرخ الإنجليزى «فلاندريس بيترى» بالرغم من الغزوات الكثيرة التى مرت على مصر إلا أنه لم يكن التغيير فى الجنس بقدر التغيير فى الحكام فقط.

إن شعب مصر يختلف كثيرا عن غيره من شعوب الأرض، ونحن مؤهلون أن نكون فى الريادة ونقود العالم، أو أن نقع فى جب من التخلف القاسى. بالحساب نجد أن مصر قادت العالم أكثر من ٥ آلاف سنة، ولا يمكن أن يعادل هذا الرقم أى شعب آخر، أو أى حضارة أخرى. مصر أعظم بلد فى الأرض بالتاريخ والجغرافيا والحساب وإنما أيضا بالعلم. فهل قام العلم الحالى بفك رموز التحنيط فى الحضارة الفرعونية؟، الفراعنة حنطوا موتاهم لتبقى لآلاف السنين تتحدى الزمن ومازالت تتحدى السنين. لا أنسى يوم نزول رمسيس الثانى مطار أورلى بباريس وتم عمل المراسم التى

تتم للملوك وعزفت الموسيقى السلام الوطنى ورفعت الأعلام لومياء هذا الملك العظيم. أى عِلم حالى أمكنه بناء المعجزة العلمية المسماة بأهرامات الجيزة وسقارة ومعابد الأقصر ومعابد فيلة ومعابد أبو سمبل وغيرهم. وأى علم حالى استطاع التقدم فى الطب والهندسة وعلوم الفضاء والكون مثل العلم المصرى القديم بشهادة كل سكان الكرة الأرضية. وسوف يثبت العلم الحديث أن الفراعين العظام قد غزوا الفضاء ووصلوا إلى القمر وقد نقلوا حضارتهم إلى هناك، وهناك إرهاصات لهذا الكشف الآن، الذى نتوقع أن يجدوا على سطح القمر آثارا لغزاة مصريين وسوف يكون هذا هو الكشف الذى يجبر العالم أن يقدر الحضارة المصرية التقدير الحقيقى.

مصر أعظم بلاد الأرض بالتاريخ والجعرافيا والحساب والعلم وأيضا أعظم بلاد الأرض بالفن. وكيف لا ومصر تحوى ٤٠٪ من أثار وفنون الكرة الأرضية.نحن أول من زين ميادين مدنه بالتماثيل والمسلات، وأول من نقش على الحجر وعلى البردى. ناهيك عن فن المعمار وهندسته منذ فجر التاريخ حتى فى عصور الانحطاط كان فن العمارة له رونقه. والديانات كان لمصر فيها الباع الأول، ولا أنسى قول أحد الشيوخ نحن المصريين من أقام للمساجد مأذنة، وقول آخر إن من لا يمضى رمضان فى مصر لا يعرف كيف أنه شهر رائع لاحتفاء المصريين به. ولا ننسى الدولة الفاطمية وتأثير القاهرة على العالم الإسلامى أجمع. فضلا عن المسيحية التى بزغت من هذه الأرض الطاهرة، وكذا اليهودية التى عبرت أيضا من تلك الأرض المقدسة.

آن لمصر أن تعود لها ريادتها فى كل المجالات، آن لرجال الظلام ومن لا يعلمون مكانة وقيمة تلك البلد العظيم أن يتنحوا جانبا، وأن تترك

الساحة لرجال ذوى همة وعزيمة لريادة مصر للعالم من جديد. وآن لرجال يحكمهم الخوف أن يتركوا لنا الخيار إما أن نخاف مثلهم أونحب لنبنى. لا يمكن أن يولد الخوف حبا، فكل شىء تخافه أنت بالقطع تكرهه.

ويمكن أن نتساءل وهل كل هذا الحب والإطراء لأرض وتراب هذا الوطن نوعا من العنصرية؟ أليست العنصرية بغيضة وتساعد على إذكاء الفتن والحروب. نعم ممكن أن تكون عنصرية فعلا، ولكن كلها حقائق والتاريخ لا ينكر، ونحن فى عصور الانحطاط، جاءت لتقوى العزيمة، وتثبت النفس. ولو كنا ذكرناها ونحن فى أوج قوتنا لكان نوعا من العنصرية التى تذكى العنف.

ويمكن أن نسأل، ألا يوجد شىء فى تلك الأرض باق من تلك الحضارة العظيمة وكيف انتهت تلك الإمبراطوريات المتكررة إلى هذا الوضع الحالى المذل؟! ونجد الجواب فى كل بقاع الأرض: لهم لآثارهم الحديثة؛ أحمد شوقى وطه حسين ونجيب محفوظ وأم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش وغيرهم، ممن وقف التاريخ والبشرية احتراما لهم. فى أحد ميادين روما بإيطاليا تمثال أحمد شوقى ويقابله تمثال لعمر الخيام يحكى شيئا من تاريخنا الحديث الذى لم يقدر التخلف حتى يومنا هذا على دحره. وتقف أيضا فى أعظم ميادين روما المسلة الفرعونية معلنة أن حضارتنا كانت أعظم الحضارات.

لا أنسى فى يوغسلافيا (قبل التقسيم) أن طلب منى الأصدقاء هناك أغانى أم كلثوم، والمسلمون منهم طلب شرائط القرآن الكريم للشيخ عبد الباسط عبد الصمد. أم كلثوم أعظم سيمفونية عزفتها البشرية

حتى الآن. خرجت فى نهايات القرن التاسع عشر من أغوار الريف لتقول للكرة الأرضية، أرضنا مازالت بكرا تنبت الدرر تلو الدرر. رغم كيد التخلف والجهل الجاثم منذ سنين. ويظل مشعل أم كلثوم مضيئا رغم مرور السنين، ليحكى أنبل قصة، وأسمى شعور عرفته البشرية. من إحدى قرى مصر الفقيرة خرجت أم كلثوم لتكون سيدة الغناء العربى لتوحد هذه الشعوب فى الخميس الأول من أول كل شهر، ليستمعوا إليها من المحيط إلى الخليج.

ومن حوارى القاهرة خرجت روايات نجيب محفوظ لتبهر العالم. تهتز الأرض تحت وطأة صدقها وجمالها. لن أنسى أن دعانى صديق نيجيرى فى بيت من بيوت مدينته «كانو» بنيجيريا وقال أنت دخلت التاريخ بدخولك هذا البيت. هل تعلم أن الزعيم جمال عبدالناصر قد دخل هذا البيت ونام فيه. واستطرد قائلا أرسل لنا طائرات وجيش لدحر قوى الظلام فى نيجيريا. وهم ممتنون له حتى يومنا هذا. ولا ننكر أن حركات التحرر فى العالم أجمع كانت تقتدى بثورة يوليو ١٩٥٢، وكان ناصر عونا لهم، رغم أنه كان عبئا على اقتصادنا. إلا أن مصر كانت المحراب لكل متحررى العالم؛ وهى التى أنشأت مع يوغوسلافيا والهند مجموعة عدم الانحياز التى كانت تناطح القوة العظمى فى الغرب بزعامة أمريكا، والقوة العظمى الأخرى فى الشرق بزعامة الاتحاد السوفيتى (سابقا). ولا ننسى أعظم فنان عالمى عمر الشريف وكذا علماء مصر فى الخارج مثل مجدى يعقوب وأحمد زويل وفاروق الباز وآخرون كثيرون.

مازالت أرض مصر، ورغم كل هذا التغييب والانهيار. تخرج أعظم نساء ورجالات الأرض.

المرأة والوطن

إن المرأة أساس أى مجتمع إنسانى وهى التى تحافظ على اللبنة الأولى فى الوطن وهى الأسرة، وأى ظلم أو تهميش لها تكون نتائجه المباشرة تخلف هذا الوطن. ابن رشد أحد الفلاسفة العرب فى القرن الثانى عشر الميلادية يرى أن السبب الأساسى فى سقوط الحضارة الأندلسية هو تهميش دور المرأة وتهميش العلم، وتقليص الحريات فى هذا المجتمع. ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨) من أهم فلاسفة الإسلام وصحح لعلماء وفلاسفة سابقين له كابن سينا والفارابى فهم بعض نظريات أفلاطون وأرسطو. قدمه ابن طفيل لأبى يعقوب خليفة الموحدين فعينه طبيبا له ثم قاضيا فى قرطبة. تولّى ابن رشد منصب القضاء فى أشبيلية، وأقبل على تفسير آثار أرسطو. تعرض ابن رشد فى آخر حياته لمحنة حيث اتهمه علماء الأندلس والمعارضين له بالكفر والإلحاد، وتم إبعاده إلى مراكش وتوفى فيها سنة ١١٩٨. كان ابن رشد يرى أنه لا تعارض بين الدين والفلسفة، ولكن هناك بالتأكيد طرقا أخرى يمكن من خلالها الوصول لنفس الحقيقة المنشودة وليس بالدين والفلسفة فقط ولكن بالعلم. إنه كان يُقدّر دور العلم ودور المرأة فى المجتمع منذ القدم وهما الجناحان اللذان تقوم عليهما الحضارة الغربية اليوم وبدونهما لا نجد إلا مجتمعا مهمشا مثل مجتمعاتنا الحالية. كان ابن رشد يؤمن بسرمدية الكون ويقول بأن الروح منقسمة إلى قسمين، القسم الأول شخصى يتعلق بالشخص والقسم الثانى فيه من الإلهية ما فيه. وبما أن الروح الشخصية قابلة للفناء، فإن كل الناس على مستوى واحد يتقاسمون هذه الروح، وروح إلهية مشابهة. ويدعى ابن رشد أن لديه نوعين من معرفة الحقيقة،

الأولى معرفة الحقيقة استنادا على الدين المعتمد على العقيدة وبالتالى لا يمكن إخضاعها للتمحيص والتدقيق والفهم الشامل، والمعرفة الثانية للحقيقة هى الفلسفة، والتى ذكر بأن عدد من النخبويين الذين يحظون بملكات فكرية عالية توعدوا بحفظها وإجراء دراسات جديدة فلسفية. أما العلم فيجب أن يأخذ دوره الريادى فى تطور المجتمعات. انطلق ابن رشد فى آرائه وخاصة الأخلاقية من مذهبَى أرسطو وأفلاطون، فقد اتفق مع أفلاطون أن الفضائل الأساسية الأربع هى الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة، لكنه اختلف عنه بتأكيده أن فضيلتى العفة والعدالة عامتان لكافة أجزاء الدولة ومتمثلتان فى الحكماء والحراس والصناع، وهذه الفضائل كلها توجد من أجل السعادة النظرية، التى هى المعرفة العلمية الفلسفية، المقصورة على «الخاصة». وقد قَصَرَ الخلود على عقل البشرية الجمعى الذى يغتنى ويتطور من جيل إلى آخر. وقد كان لهذا القول الأخير دورٌ كبير فى تطور الفكر المتحرّر فى أوروبا فى العصور الوسطى. وأكد ابن رشد على أن الفضيلة لا تتم إلا فى المجتمع الحر. وأناط ابن رشد بالمرأة وقيامها بدور حاسم فى رسم ملامح الأجيال القادمة، فألحّ على ضرورة إصلاح دورها الاجتماعى فى إنجاب الأطفال والخدمة المنزلية. وقد قال بعض الباحثين: لقد تساءل الفيلسوف ابن رشد فى القرن الثانى عشر الميلادى وهو يعاين انطفاء آخر أنوار الحضارة العربية التى سمت فى الشرق الأوسط وأسبانيا إلى ذرى شاهقة عما إذا لم يكن هذا الانحطاط يرجع جزئيا على الأقل إلى الوضع الذى حبست فيه المرأة، وإلى انتباذها خارج الحياة الاجتماعية. ولقد كان من انتباذ المرأة خارج الحياة الاجتماعية لأى مجتمع هى البداية لانحدار كل مجتمع

لأن نصف هذا المجتمع يكون مهمشا وعالة عليه ناهيك عن كون المرأة لها الدور الرئيس فى رسم ملامح الأجيال القادمة.

تعريف العامة للأخلاق عند أهل الغرب هو التفانى فى العمل، واحترام المجتمع الذى يعيش فيه الفرد. واحترام الغير والتسامح مع الآخرين. ويرى أهل الشرق أن الأخلاق هى قيود على الحرية الشخصية. إن محاولة إثبات أن المرأة فى المجتمع الشرقى لا تتمتع بكامل حريتها حفاظا على أخلاق المجتمع هو ظلم للمرأة، فالمرأة لا تخرج من بيتها إلا بإذن من الرجل. مع العلم أن الرجل يمكن أن يخرج بدون إذن المرأة. والمرأة ليس لها الحق فى العمل إلا بموافقة الزوج أو الرجل المسؤول عنها. المرأة ليس لها الحق فى السفر خارج البلاد إلا بموافقة الزوج. إلى آخره من الممنوعات على المرأة وكأنها حبيسة أوامر الرجل. من وجهة نظر رجل الشرق أو على الأقل الغالبية منهم أن المرأة ليس لها الحقوق إلا أن تلد ويمارس معها كل أنواع التهميش.

من ناحية المجتمع ككل فالمشكلة أكبر. فمثلا المجتمع يتدخل فى كل شئون المرأة حتى فى اختيار ملبسها، بل يمتنع على المرأة التحدث فى الشارع مع غريب، حتى وإن كانا من أهل مدينة واحدة. بل يمكن أن يتحول النقاش بين الرجل والمرأة إلى فضيحة لهذه المرأة. ناهيك عن حق المرأة المادى والإجحاف الذى تتعرض له. مع أن الأمان المالى فى خريف عمر المرأة هو الضامن الوحيد من غدر الرجل وإمكانية إلقائها على قارعة الطريق لأنها غالبا ما تكون قد فقدت الجمال والأهل والخلان. والغريب فى الأمر أن يستريح اليمين لذلك، ولا يدافع عن المرأة، مع تأكده من أنها مظلومة، بل يدعى أنها سعيدة بذلك لأنها

تنفذ أوامر الرجل الأول أو المعلم الأكبر أو السلف الصالح الذين كانوا لا يخطئون بل نحن – فى هذا القرن وفى هذه الحضارة – الخطاؤن.

تلك الأفكار كانت منتشرة أيضا فى المجتمعات الغربية أثناء العصور الوسطى. فكانت هناك أسر محافظة تمنع حتى على المرأة تلقى العلم فى المدارس مع أقرانها، وكانت هناك أسر تأتى بالمعلم إلى المنزل لتعليم البنات. وفى انجلترا مثلا كانت تسمى تلك الأسر نفسها بالأسر الفكتورية. ولكن المرأة أخذت حقوقها الآن فى الغرب كاملة. رغم أنها احتفظت لنفسها ببعض القيود القليلة، مثل التمييز فى الملبس عن الرجال أحيانا. أو فى استخدام بعض أنواع الزينة، ورغم ذلك تجد أن هناك رجالا يزاحمون النساء فى أوروبا هذا السلوك، كنوع من التمرد على السائد. الفيلسوفة الفرنسية سيمون دى بوفوار «Simone de Beauvoir» فى كتابها «الجنس الآخر» تقول «إن المرأة لا تولد أنثى بالمعنى التداولى النمطى للكلمة. لكن المجتمع يجعلها كذلك».

إن المرأة والرجل هما الوجهان الأساسيان لاستمرار الحياة على الأرض. وممكن أن تكون المرأة أكثر أهمية من الرجل لاستمرار الجنس البشرى والحياة، بل هى عصب أى مجتمع. والرجل هو عامل مساعد لاستمرار الحياة. الرجل له قيمة متساوية مع المرأة فى تطور المجتمع. بل إن المرأة هى الأهم إنتاجيا واقتصاديا. الرجل على مر التاريخ هو مشعل فتيل الحروب والخراب. والمرأة هى مصدر التحضر والنمو فى أى مجتمع. ولا ننسى عملية إعادة بناء ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية وبعد أن فقدت أكثر من ٢٠ مليون رجل فى الحرب. قامت المرأة بالبناء وقامت بكل الأعمال التى كانت تسمى ذكورية أكثر.

وبكفاءة نحسدها عليها، ونحسد ألمانيا الآن على ما وصلت إليه من تقدم بفضل عمل المرأة.

المرأة ورغم كل الظلم الواقع عليها فى مجتمعاتنا، إلا أنها تتسامح وتقول من يخرج الحياة من بطنها ومن أحشائها هو صاحب الكلمة العليا فى الحياة. إن المرأة وهى فى طور الحمل والولادة هى التى تعمر الأرض، فإن ولدت ذكرا فليس أمامها إلا أن تحبه، ولذلك نجد أن المرأة فى المجتمعات اليمينية تكون أحيانا متساهلة فى حقوقها لعلمها أن هذا الرجل الذى يسلبها حق الحياة والمتعة ويفرض عليها هذا السجن كان فى أحشاء امرأة من نفس جنسها وحملته وتحّملته، ونظرا لجهله ورعونته يمكن أن تتنازل المرأة ليس ضعفا ولكن لاستمرار الحياة، وكفى البشرية حربا لأن المرأة داعية للسلام أكثر من الرجل على مر التاريخ.

فى المجتمعات اليمينية تكون المرأة هى المحرك الحقيقى للمجتمع ورغم ذلك يسلب منها جميع حقوقها الإنسانية، وهى حرية الملبس والمأكل والتعليم والعمل والسفر، فهل سلب حرية السفر من إنسان إلا عبودية من سالب هذا الحق؟! وهل سلب حرية العمل إلا عبودية المرأة لسالب هذا الحق؟! المرأة هى التى تعتنى بالبيت رغم أنها تعمل فى المجتمع مثلها مثل الرجل، وهى التى تربى الأولاد رغم أن الرجل مشترك فى وجود هؤلاء الأطفال. والمرأة فى المجتمع الريفى اليمينى تقريبا هى التى تنفق على المنزل فهى تعمل وتصلح الأرض وتربى الطيور والحيوانات فى المنزل وتخدمها وهى التى تعد المأكولات، بل هى التى تصنع حياة الفلاح الذى لا يشارك فى العمل إلا فى الزرع أو الحرث، وهى أعمال موسمية وليست يومية كعمل المرأة. المرأة هى عماد المنزل

وهـى أيضا عماد المجتمع، وبدونها تتحول الحياة إلى جحيم، رغم هذا يسـمح المجتمع اليمينى للرجل بأن يذل ويهزم المرأة، ومفروض عليها أن تسـمع أوامر الرجل فى أخص خصوصياتها وليس لها حق حتى فى الاعتراض.

مـن ضمن الظلـم الواقع علـى المرأة بصورة شـائعة فـى الأرياف والمجتمعات البدوية موضوع أن السـبب فى كون الطفل ذكرا أو أنثى يعـود إلى المـرأة، ولكن العلم قد أثبت بالدليـل القاطع أن تحديد نوع الجنين يرجع إلى الأب بصورة كاملة، فالجهاز الوراثى لكل فرد، وهو ما يعرف بالجينوم البشرى، يوجد فى نواة كل خلية من خلايا الجسم، ويتألف الجينوم البشـرى من ثلاثة وعشرين زوجا من الكروموسومات فى جميع الخلايا الجسـدية Somatic Cells وهى ذات عدد محدد وثابت لكل كائن حىّ، أما فى الخلايا التناسـلية (حيوانات السـائل المنوى والبويضات فى الإنسـان) فتحتوى دائما على نصف هذا العدد، لذا فعنـد تلقيح الحيوان المنوى للبويضة فـى عملية التخصيب تتكون الخليـة الملقحـة كاملة من ٢٣ زوجا، نصفه مشـتق مـن الأب، وهى كرموسـومات الأب، والنصف الآخر مشـتق من الأم، وكروموسومات تلك الخلية التى تحوى ٢٣ زوجا منها كروموسـوم واحد مسـؤول عن نـوع جنس الجنين، إن كان ذكـرا أو أنثى، ففى الأنثى يكون (XX) أمـا فى الذكر يكون (XY) لذا فـإن هذا الزوج هو الذى يحدد الجنس إن كان ذكـرا أو أنثـى وهو يأتى من الرجـل ولا يأتى من الأنثى. بل يتحدد خصائص الطفل وما هى الصفات التى يمكن أن يكون قد ورثها من والديه، ومستقبله الوراثى بالكامل.

ويمارس الرجل كل أشكال التنكيل والاستعباد للمرأة. وهو يعلم أن كل الحجج التى يسوقها لتركيع المرأة ما هى إلا موروثات بالية قديمة. وهى ليست إلا حلقة من حلقات التخلف. أو هى عبارة عن بعض العادات والتقاليد البالية فى مجتمعات العصور الوسطى. والتى عفا عليها الزمن. والتى يحاول هؤلاء إيقاظها الآن لدحر المجتمع المتحضر.

أحيانا تكون بعض العادات والتقاليد المتوطنة فى مجتمع ما إما خاطئة أو بالية وتساعد على التخلف، وفى بعض الأحيان يفطن المجتمع ويتخلى عنها للتغلب على مشاكله. حتى الحيوانات أو الأسماك تتنازل عن تلك العادات والتقاليد وتضطر لتغييرها لحماية نفسها. ففى مطلع هذا القرن كانت تذهب آلاف السفن من حول العالم إلى خليج المكسيك لصيد الحيتان لاستخراج الزيت من أجسامها. ويستغل الصيادون عادات متوارثة عند هذه الحيتان وهى التكاثر فى هذا الخليج الدافىء فى موسم معين كل عام. ويتحول الخليج إلى دماء، إلى حد أنه يصف أحد الصيادين تلك المذبحة بأن دماء الحيتان فى الخليج تكون أكثر من ماء الخليج ذاته. إنها جريمة كانت تتم سنويا بدون أى رحمة من أجل براميل زيت الحوت الغالية. وفكرت الحيتان بعد سنوات طويلة من الذبح أن يتخلوا عن هذا الخليج الدافىء الذى يساعد على التكاثر، وتركوا الخليج وتركوا أفضل حضّانة طبيعية فى العالم لتكاثر الحيتان. وقد لا يتكاثرون كما كان فى الخليج، ولكن فطن الحيتان إلى هذه المصيدة والتى تعودوا عليها منذ ملايين السنين. وتوقفت المذبحة. فهل سوف يفطن أهل بلدى إلى ما فطن الحيتان إليه بتغيير عاداتهم وتقاليدهم البالية والتى تجعلهم مصيدة سهلة للصيادين؟ أم هل سوف نظل نتعاطى

العادات والتقاليد البالية التى تجعلنا مصيدة للجهل والتخلف. لكم فى الحيتان مثال يا أولى الألباب.

ويبقى الإنسان الحر والخير والتفاؤل إلى نهاية الأرض كما تخبرنا مسيرة التاريخ ويندحر إنسان الشر مهما طال له البقاء.

الاختلاف والمواطنة

من القضايا التى دائما يثيرها اليمين المغالى هى قضية العنصرية وتعميقها بين بنى البشر، ويعتبرون أن هذا هو الخنجر المضمون والنافذ الذى سوف يضرب – الضربة الأخيرة – الحضارة البشرية الدنيوية، أو كما يسمونها الحضارة الغربية، فليس هناك أقوى من قضايا العنصرية فى إثارة الكراهية بين بنى البشر، وكانت على مر العصور مصدرا رئيسيا فى الصراع البشرى، لكن الغريب فى مسار التاريخ أن كل حرب يكون سببها العنصرية، يكون من نواتجها عودة الإنسان بقوة للحياة، بل يستخدم مخزون الخير فى البناء، والبناء السريع لما تم هدمه ليحدث تطوير غير مسبوق فى حياة البشرية عقب كل حرب. فكرة العنصرية فيها تناقض حيث إن كل قوم يعتبرون أنفسهم هم الأحق فى السيطرة على الدنيا بل والسيطرة أيضا على الآخرة. رغم أن التدين الظاهرى من أهم مقومات هؤلاء العنصريين من البشر، ولا يعترفون أن الناس جميعا سواسية خلقهم الله أحرارا، فكيف يفضل الإله الواحد الأحد بعض من خلقه على غيرهم لكونهم يسلكون سلوكا معينا أو يتبعون دينا معينا.

الفكر الظلامى، وباسم الفضيلة والأخلاق أيضا، يفرق بين أبناء الأمة الواحدة، بأن يحاول إثبات أن من حق من ينتمون إلى دين معين. يجب أن يفرضوا سيطرتهم لكونهم الأغلبية. فى مثل هذه الحالات تحاول

الأقلية أن تنزوى أو تهاجر. وبذلك تتحول الأقلية إلى شعبين نصفهم فى المهجر والنصف الآخر فى وطنهم. وهناك أسر كثيرة تجد أن أكثر من نصف أعضائها بالمهجر والباقى فى بلده يندب حظه، ومحروم من رؤية أبنائه أو التمتع بصحبتهم فى أرذل العمر. المجتمع لم يدع بديلا لهم إلا الهجرة مع أن من يهاجر هم خيرة شباب هذا المجتمع، وأحسن من تعلموا وأنفقت عليهم الأمة بالكامل، وقد تسلحوا بالعلم والخبرة، وفى آخر المطاف نتركهم للمهجر. إن هجرة هؤلاء الشباب الواعد المتعلم ما هى إلا خسارة لكل مواطن بغض النظر عن انتمائه، فالمواطن فقد ابنه ليس غرقا ولكن مغتربا لا يراه إلا كل عام أو مرة كل عدة أعوام، والمواطن العادى قد فقد عاملا ماهرا ممكن أن يطور حياة الأمة ككل، بكل طوائفها المختلفة ودياناتها المختلفة.

يجب أن تلغى من الدساتير ما يفرق بين أبناء الأمة الواحدة. إن الدستور الأمريكى صنع دولة عظمى لكونه لا يفرق بين شعبه بسبب العرق أو الجنس أو الدين، ويضمن الحقوق لكل أبنائه بالتساوى دون تفرقة، ويضمن الحرية كاملة للاعتقاد وممارسة الطقوس. فى رحلة أمريكا للتحرر والتوحد قاد إبراهام لينكولن حربا لتوحيد أمريكا وصياغة جديدة لدستور حر وقال جملته الشهيرة «حرب أهلية لحقوق مدنية Civil war for civil rights». ولكننا الآن لا نحتاج لحرب لضمان حقوق جميع المواطنين. التواؤم أصبح ضرورة، خاصة فى العلم والتقدم. إن المشكلة تكمن فى دستور يضعه بعض من المغرضين ليفرض نموذج البداوة والتخلف على نظام الحكم، دستور لا يعترف بأن الدولة لها ثلاثة روافد هى: أرض وشعب ونظام حكم، وليس نظام حكم فقط، أو شعبا فقط. إن الدولة هى كل من الشعب والأرض والسلطات (تشريعية

وتنفيذية وقضائية). إنه من الظلم أن يهمش جزء من الشعب فى الدستور بسبب دينه أو جنسه (ذكر أو أنثى) أو معتقده السياسى.

يجب أن يكون لمصر دستور مدنى متوازن يقر بحق المواطنة لجميع طوائف الشعب ويحافظ على حرية وحقوق وواجبات وكرامة المصريين فى وطنهم وخارج وطنهم، ولا يفرق بينهم بسبب الجنس أو اللون أو الدين، أويظلم ذوى العاهات والمرضى بكل نوعياتها، أو يجور على حقهم فى الحرية والحقوق. إن الدساتير المصرية السابقة ومنذ دستور ١٩٢٣، وفى مواد كثيرة منها يدعو إلى العنصرية والتمييز بين فئات الشعب الواحد، ويلغى بل ينسف حق المواطنة من أساسه. ففى إحدى مواده تقول «الإسلام دين الدولة» والتى ابتدعها الشيخ محمد بخيت فى دستور ١٩٢٣ وكان ذلك خوفا من المد الشيوعى وحزبه الوليد فى مصر، وكان ذلك بإيعاز من الإنجليز الذين كانوا يحاربون الشيوعية، ويرون فى الرأسمالية الإسلامية سندا لهم. البداية كانت خطأ لأن الدين نزل للبشر لم ينزل على الجماد و مصر غالبية سكانها مسلم. ومصر نفسها الأرض والوطن ليس له دين لأنه جماد. ولماذا نشعر المصريين أنهم ضيوف إذا كان دينهم غير الإسلام. الدستور لكل المصريين ولا يفرق بين أى مصرى بسبب اللون أو الجنس أو الدين أو العمر. وفى دستور سنة ١٩٧١ زيدت على النص «مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع». يمكن أن تكون قوانين تطبيق الشريعة فرض على كل مصرى مسلم،وليس على أى مصرى غير مسلم، يوضع ذلك فى قوانين وليس فى الدستور. وتطبق تلك القوانين على فئة من الشعب الراغبين فى تطبيقها. ومن لا يرغب يمكنه أن يغير دينه أو يظل بدون دين كما ضمن ذلك القرآن الكريم لكل

البشر ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1] الدستور لكل المصريين، ويجب أن يقر حرية الإنسان فى اعتقاده. إن اختيار تشريع سماوى دون غيره ليكون المصدر الرئيسى للتشريع به لمحة انحياز للأغلبية يجب أن لا تكون فى دستور أرضى له صلاحيات محدودة المدة ولا يساوى بين الجميع فى بلد واحد، وهذا لا ينصف الدين فى حد ذاته لأن الدين أكبر وأعظم من كل دساتير الدنيا، ولن يزيد الدين أو ينقص منه شيئا أن يكتب فى دستور دولة ما أو لا يكتب هذا. فالدين كونى وليس حكرا على دولة بعينها. إن اختيار تشريع سماوى دون غيره لا يصح أن يكون لدولة متعددة الديانات أو الثقافات بل يصح أن يكون سمة لبعض الشعوب والتى غالبيتهم من دين واحد. ويكون ذلك فى إطار التقارب والتفاهم بينهم. من الظلم أيضا. أن يكتب فى شهادة ميلاد المواطن الخاصة بها الدين الذى يدين به، لينتقل من بطاقته إلى حياته كلها. وكأن الدولة تقول له أنت هكذا ويجب أن تكون متشددا وأن نعاملك على أساسه فى تلك البلد. يجب أن يكون الدستور للجميع ويساوى بين الجميع، ولا يضع أى قيود على أى فرد فى المجتمع. أى تفاوت فى الحقوق والواجبات بين أبناء الوطن الواحد فى الدستور يكون بمثابة الموافقة على قيام حروب أهلية. فإما أن يرضخ الأقلية لحكم الأغلبية، أو نطالبهم بهجرة بلدهم أو العيش قهرا فيه دون التمتع بكامل حقوقهم، أو يحاربون دفاعا من أجل حقوقهم المدنية وبالتالى تبدأ الحروب الأهلية بين فئات الشعب الواحد. الغريب أن مواد الدساتير المصرية تفرق بين بنى الوطن الواحد، والغريب أنه كلما وضع دستور جديد كانت

(١) سورة الكهف الآية ٢٩.

فيــه قيود أكثر، وكأن المجتمع يزداد تخلفــا بمرور الوقت، عكس كل الشــعوب الأخرى التى تتقدم يوما بعــد يوم. إذا أرادت أن تعرف مدى تخلف أى شــعب اقرأ دســتوره. فكلما قيد الحريات فيــه، كلما كان هذا الشــعب متخلفا. نحن أول شعوب الأرض التى عرفت معنى الدولة المدنية منذ ســبعة آلاف عام. وأول من أقــام مجتمعا مدنيا. ونحن من علم البشرية الحضارة، فلا أقل من أن يكون لنا دستور مدنى ديمقراطى يحافظ على كرامة وحقوق متساوية للجميع.

جميع المواطنين متســاوون فى كل الحقوق والواجبات، والدين شــىء خاص بالشخص نفسه دون غيره، وهو المسؤول عنه أمام ربه. وليس أمام محاكــم الدولة. فالمجتمع ليس مســؤولا عن الدين وكذلــك الدولة المدنية غير مســؤولة عن تطبيق شــرائع الدين بالقوة. المجتمع والدولة مسؤولون عــن توفير حياة كريمة لكل فرد من أفراد المجتمع، وعن تعليم جيد وعن رعاية صحية جيدة وعن عمل مناســب وعن مســكن مناســب وعن شوارع وطرق جيدة. ليست الدولة مسؤولة عن تطبيق تعاليم الدين. وليست الدولة أو المجتمع مســؤولا عن علاقة المواطن بالله الواحــد الأحد. فهذه علاقة لا يحاسب عليها إلا الله، إن كان مؤمنا صالحا أو غير صالح، والله يعاقب إن كان مذنبــا أو غير مذنب، بل من مشــيئته تعالى أن يســامح البشــر. بل يغفر الذنوب جميعا إلا الشرك به. فما دخل الدولة فى ذلك؟!

ألا يعتبر ذلك تخليا من الحاكم وصانعى القوانين عن دورهم الحقيقى فى توفير العمل والمأكل والملبس والعدل الاجتماعى والمســكن والشــوارع المناســبة والحياة الكريمة للمجتمع لكل أفــراده. بحجة تطبيق قوانين دين معين. إن الحكومة بقوانينها ومحاكمها إنما تحول المجتمع إلى فئة

ظالمة لفئة أخرى، وذلك هو الذى يضعف الدولة، فكل من هو مضار من تلك القوانين ليس أمامه إلا أن يهاجر بعد أن يحمل من الوطن القديم ما يمكن أن يحمله من علم ومال وخبرة وتعليم وتاريخ، أو أن يحارب من أجل حريته.

إن التاريخ سوف يحاكم رجال الدين لأنهم تركوا دينهم، وأخذوا فى الصراع على السلطة. وهم كانوا من أهم أسباب الصراعات بين الشعب الواحد والشعوب المختلفة، بل تحول الدين فى معتقدهم إلى وسيلة للوصول إلى الحكم أو لأى هدف ليس إلا، أو محاولة الحصول على الأموال باسم الدين، أو سرقة بلد بأسره باسم الدين، أو تعذيب البشر باسم الدين. أحيانا يكون الدين هو وسيلة للوصول إلى أهداف بعينها، قد تكون خبيثة، والدين منها براء. ولكن هناك رجال وهناك كلام لإصباغ الصفة الدينية على جشعهم وطمعهم. وكأن الجشع والطمع هما اللذان يتحكمان فى سلوكهم وليس الدين بالطبع، وذلك من أجل تحقيق مصالحهم الشخصية، لأن تحقيق المصالح بالعمل صعب بل صعب جدا، وهم لا يتحملونه، إما بالفهلوة، أو بالكلام وهذا سهل جدا.

يجب أن تتحلى الدولة – بدستورها وقوانينها – بالعدالة بين كل مواطنى هذه الدولة وليست بالتمييز بينهم، غير ذلك يساعد فى هدم اقتصاد تلك الدولة بل فى فنائها، وتوليد طابور ثان وثالث ورابع داخل شبكة الدولة، ويكون المواطنون متعطشين للحرية، مهما كان الثمن. إذا كان الثمن الغربة يتجرعونها صاغرين، وإذا كان الثمن هو الرعب فليقفل كل واحد منهم بألف قفل وترباس على نفسه وعلى أسرته من الخوف، وبدلا من أن يعمل وينتج ويكون عنصرا بناءً فى الأمة، يكون

عنصرا قلقا وسلبيا. وكل مشاكله تتركز فى تأمين نفسه والحفاظ على أمنه وإبعاد الخوف عنه، إلى أن يقتنع أنه لا أمل إلا فى الهجرة. فهل هذا يصح فى القرن الواحد والعشرين، والذى أصبحت فيه دبة النملة مسموعة فى كل أرجاء العالم.

إن الدولة التى تحاول أن تفرق بين رعاياها إنما هى دولة تريد لنفسها الفشل والانهيار، وتريد أن تحارب نفسها بنفسها. فتميز فئة من المجتمع بسبب الأصل، ليس له معنى إلا إثارة الفتن والحرب بين طوائف الشعب الواحد، وبذلك يضعف نظام الحكم ويضعف الاقتصاد. فمثلا فى حالتنا، وأمام سمع وبصر الجميع قد هاجر أكثر من ٥ ملايين إلى خارج بلدهم وهم جميعا من خيرة الشباب، لو قدر لأى بلد آخر أن يهاجر منها مثل هذا العدد من القادرين على العمل لانهارت تلك البلد فى وقت قصير. هذه النسبة كبيرة جدا، ولا تساعد المجتمع إلا على الانهيار والاضمحلال، وهذا هو العار والخراب للاقتصاد بصورة خاصة، لأن شيوع فكر معين دون غيره فى مجتمع يحول أعضاء المجتمع إلى عبيد لهذه الأفكار، والعبيد ليس عندهم قدرة على الإنتاج أو الإبداع إلا بالسيف. لذا فإن الدولة من هذا النوع تكتفى بأن تعامل البشر بقوة السيف أو بسلطان الشرطة الموالية للنظام، وهى الوسيلة الوحيدة للحفاظ على قدر ضعيف من الإنتاج وقدر أضعف من الأمن والأمان. إن الهروب البشرى من تلك المجتمعات يعتبر هو الهدف لأبنائه. إن المحاولات اليومية لهروب العشرات بل المئات من أبناء هذا الوطن عن طريق البحر إلى الدول المجاورة رغم هول التجربة وتعرضهم للموت أثناء هذا الهروب لهو دليل على ذلك، لأنهم يطلبون الحرية فى المقام الأول، يطلبون حياة

كريمة فى المقام الثانى. تقول الروائية والشاعرة الإنجليزية فرجينيا وولف فـى كتـاب «غرفة تخص المرء» «إنه لمن البغيض أن يسـجن المرء داخل غرفـة، ولكم ما هو أسـوأ، ربمـا، أن يحرم من دخـول غرفة مغلقة». فالحرية هى المطلب الأول للبشـر، و كما قال الفيلسـوف الألمانى نيتشه «الحرية لا تؤخذ ولا تعطى، الحرية لا تنال بالأقوال».

من المقلق وضع دستور يكبل البشر، صنعه أناس غير معنيين بصالح الوطـن بقدر اعتنائهم بأفكارهم الموروثة أو تلـك الأفكار التى تنتمى إلى فصيل خارج الوطن يريد فرض سـيطرته، أو إعلاء جنس معين. مع أن فى بلادنا رجالات لهم همة وشأن كبير وغير مغيبين حضاريا، ويمكنهم وضع دسـتور متسـق، يمكن الدولة مـن أن تصلح مـن حالها فى مدة لا تجاوز خمس سـنوات فقط، نعم فى خمس سنوات يمكن خلالها أن تتحول بلادنا إلى جنة. إن بلادنا من أغنى بلاد الأرض، ولنا أن نسـأل هـل حكامنـا لا يريدون لنا الرخـاء، ولا يردون لنا الحيـاة الكريمة؟! وما هـى الفائـدة التى تعود عليهم من إبعاد أصحاب الرأى السـديد؟! هؤلاء الرجال دائما يهمش رأيهم بل أحيانا يودِعونهم تحت الحراسـة أو السجن.

سـرت نغمة تقول أن المواطنة حقٌ متسـاوٍ للجميع، وكأنها اكتشاف جديـد. ولكن حين تم تعديل دسـتور ١٩٧١ ذكرت كلمة مواطنة فقط، وتم التعديـل أو التغيـير بعد ذلك، ولم يعط الحكام أى مرونة فى تغيير الدسـتور لتطبيق تلك المواطنة المزعومة وهذه المسـاواة المزعومة. إن هذا ليـس إلا مقدمـة للانهيـار، وتاريخ مصر الحديـث والقديم ملىء بمثل تلـك الفترات القاسـية، مثل حكم الهكسـوس أيام العصـور الفرعونية

وهـم بدو رحل ورعاع قادمون من الشـرق واحتلالهم مصر لمدة تزيد عن قرن ونصف. ولم تسـلم مصر وتعود إمبراطورية لها قدرها إلا على أيدى رجـال عظماء تكاتفـوا وخرجوا لحروب طويلة لتحريـر مصر من هؤلاء الرعاع القادمين من الشرق. وبدأت الأسرة الثامنة عشرة من أسر الفراعنة العظماء لتبدأ رحلة النجاح المصرى من جديد. ولو كان قد انتبه المصريون من رجالات الدولة فى الأسرة الرابعة عشر للخطر القادم من الشرق الذى يتسـرب كالعنكبوت قطرة قطرة وجزءا جـزءا إلى أن يحول الدولة كلها إلى الأسـر والمهانة. لما كانت مصر وهنـت لهذه الدرجة فى الفترة التى تلت احتلال الهكسـوس الرعاع. فهل نحن بصدد هكسـوس جدد آت من الشـرق أيضا؟. مثال آخر لذلك الانحطاط هو فترة حكم المماليك وهم أيضا أتوا من الشرق، وانهارت مصر لسنوات، إلى أن جاءت أسرة قوية هى أسرة محمد على وحاولت بناء إمبراطورية مصرية على أساس قومى قائمة على أساس مدنى ومتطلعة للحضارة والحداثة. فكانت إمبراطورية عظيمـة قصيرة العمـر وضحاياها كانوا أكثر، بسـبب الهوة التى كانت تفصل بين طبقات الشـعب الواحد ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا. وقامت دولـة مسـتقلة بتوجه ليبرالى فـى مصر منذ ١٩٢٢ وحتـى قيام حركة الجيش فى سنة ١٩٥٢.